الفصل الأوَّل

الشفاءُ من إساءة الكنيسة

في بعض الأحيان، بينما أكونُ جالسًا في غرفة الانتظار أو على متنِ إحدى الطائرات، أستَهلُّ حديثًا مع غرباء يعرفون من خلاله أنِّي أكتُبُ كتبًا عن موضوعاتٍ روحيَّة. فتَتقوَّسُ الحواجب وتبرز الحواجز، وغالبًا ما أسمعُ قصَّةَ رعبٍ أخرى عنِ الكنيسة. لا بدَّ أنَّ الجالسين بقربي يتوقَّعون منِّي الدفاع عنِ الكنيسة لأنَّهم يُفاجَأون دائمًا عندما أُجيب: "آه، إنَّ الأمرَ أسوأ من هذا. فلأروِ لكَ قصَّتي". لقد أمضَيتُ معظمَ حياتي وأنا أتعافى من الكنيسة.

إحدى الكنائس التي كنتُ أواظبُ على حضور اجتماعاتها في جورجيا، وذلك خلال سنوات نشأتي في ستِّينيَّات القرن الماضي- قدَّمَتْ نظرةً مُغلَقةً بإحكامٍ إلى العالَم. كانت هناك لوحةٌ تتصدَّرُ الواجهةَ تعلنُ بفخرٍ هُوِيَّتنا بكلمات تشعُّ من نجمٍ متعدِّدِ الزوايا:

"كنيسةُ العهد الجديد التي اشتُرِيَت بالدَّم، المولودةُ ثانيةً، والتي تؤمن بالحكم ما قبل الألفيّ، تدبيريَّة، أصوليَّة...". كانت مجموعتُنا المؤلَّفةُ من مئتَي شخصٍ تحتَكرُ الحقّ- الحقَّ المتعلِّقَ بالله، وكان كلُّ شخصٍ يُخالفنا الرأي يقفُ بالتأكيد على حافَة الجحيم. ولمَّا كانت عائلتي تقيمُ في بيتٍ متنقِّلٍ على أرض الكنيسة، لم أستَطع الإفلات البتَّة من الغيمة التي ألقَتْ

بظلالها عليَّ وحجبَتْ عنِّي الرؤية ورسمَتْ حدودَ عالمي.

بدأتُ أدركُ في وقتٍ لاحقٍ أنَّ الكنيسةَ مزجَتِ الأكاذيبَ والحقائق معًا. مثلًا، كان القسُّ يكرزُ عنِ العنصريَّة بصورةٍ واضحةٍ قويَّةٍ من على منبر الكنيسة. كان يقولُ إنَّ العِرقَ الأسوَدَ ملعونٌ من الله، مقتَبِسًا فِقرةً مُلتَبسةً من سفر التكوين. إنَّهم يؤدُّون العملَ على نحوٍ جيِّد بصفتهم خَدَمًا، لا كَونَهم قادةً- ''انظروا فقط كيف يتَمايَلُ النادلون الملوَّنون في المطاعم بين الطاولات، ويحرِّكون أردافهم بينما يحمِلون الأطباق''. ذهبْتُ متَسلِّحًا بهذه العقائد لألتحقَ بوظيفتي الأولى عاملًا خلال فصل الصيف في مركَز الأمراض السارية المرموق قرب أتلانتا. وهناك قابَلتُ المشرفَ، وهو الدكتور جيمس تشيري (James Cherry)، الذي يحملُ شهادةَ الدكتوراه في الكيمياء الحيويَّة، وهو رجلٌ أسود. كان هذا أمرًا غير منطقيّ.

بعد التخرُّج في المدرسة الثانويَّة، التَحقتُ بكلِّيَّة اللاهوت في ولايةٍ مجاورة. كانت هذه الكلِّيَّةُ أكثرَ تقدُّميَّةً من كنيستي الأولى؛ لأنَّها قَبِلَتْ طالبًا أسودَ في صفوفها، ولكي يُبقوا على الأمور في وضعٍ آمن، وضَعوا معه في غرفته رفيقًا من پورتوريكو. كانت هذه الكلِّيَّةُ تؤمنُ بالكثير الكثير من القواعد، حتَّى إنَّها كانت مكتوبةً في ستٍّ وستِّين صفحة، وقد كانت قواعدَ قيِّمةً بالفعل، وكان علينا نحن الطلبةَ أن ندرسَها ونوافقَ على التقيُّد بها. كان أعضاءُ هيئة التدريس والموظَّفون يبذلون جَهدهم ليكونَ لكلِّ قاعدةٍ من هذه القواعد مبدأٌ في الكتاب المقدَّس. وكان هذا العمل يتطلَّب درجةً من الإبداع؛ لأنَّ بعضَ هذه القواعد (مثل تلك التي تشرِّع طولَ شعر الرجال وتنانير النساء) كانت تتغيَّر من سنةٍ إلى أُخرى. وحينما كنتُ في السنة الرابعة في الكلِّيَّة ومخطوبًا، لم أستَطع أن أُمضيَ وقتًا مع المرأة التي هي الآن زوجتي إلَّا خلال وقت العشاء، من الخامسة والنصف مساءً إلى السابعة. قُبِضَ علينا مرَّةً بينما كنَّا ممسكَين بيَدي بعضنا بعضًا، فوُضِعنا ''تحت المراقبة''، أيْ مُنِعْنا من رؤية بعضنا أو التحدُّث مع بعضنا بعضًا لمدَّة أُسبوعين. في الخارج، في مكانٍ ما في العالم الكبير البعيد، كان طلَّابٌ آخرون يتَظاهَرون ضدَّ الحرب في ڤيتنام، وينظِّمون مسيراتٍ دفاعًا

عنِ الحقوق المدنيَّة فوق جسر سيلما في ولاية ألاباما. كما كانوا يتَجمَّعون للاحتفال بالحبِّ والسلام في وودستوك في نيويورك. في أثناء ذلك، كُنَّا نحن مُنشَغِلين بتعلُّم عقيدة الاختيار قبل السقوط، وبقياس التنانير وطول الشعر.

بعد وقتٍ قصير من بدء الألفيَّة الثالثة، وتحديدًا في ربيع عام ٢٠٠٠م، اختبَرتُ عَرضًا موجَزًا سريعًا لحياتي. في اليوم الأوَّل، كنتُ أحَدَ أفرادِ مجموعة المحاضرين في مؤتمر في ولاية كارولينا الجنوبيَّة نعالج موضوعَ "الإيمان والفيزياء". رُغمَ أنَّه لم تكنْ لديَّ أيَّةُ خبرةٍ عمليَّةٍ في الفيزياء، فقدْ وقعَ عليَّ الاختيارُ مع ممثِّلٍ من كلِّيَّة اللَّاهوت في هارفرد؛ لأنِّي كنتُ أكتبُ بشكلٍ صريح عن قضايا الإيمان. كانت مجموعةُ المحاضرين تميلُ إلى الجانب العلميّ، حيثُ إنَّها كانت مؤلَّفة من فيزيائيِّين حائزين جائزةَ نوبل، إضافةً إلى مدير المسرِّع النَّوويِّ فيرميلاب (Fermilab) الذي يقعُ بالقرب من شيكاغو.

بدأ أحَدُ الذين حازوا جائزةَ نوبل بالقَول إنَّه ليس في حاجةٍ إلى الدِّين. وفي الواقع، هو يحسبُ الدِّينَ أمرًا ضارًّا ومرتَبِطًا بالخُرافات. ثُمَّ قال: "يدَّعي ١٠٪ من الأميركيِّين أنَّهم اختُطِفوا من قِبَل مخلوقاتٍ من الفضاء الخارجيّ، ونصفهم يؤمنُ بالخليقة، والنصف الآخرُ يقرأ طالِعَه في الأبراج كلَّ يوم. لماذا نُدهَش إذا كانَتِ الأكثريَّة تؤمن بالله؟" لقد نشأ يهوديًّا متمسِّكًا بعقائده، لكنَّه الآن ملحدٌ متشدِّد.

كانت كلماتُ العلماء الآخرين أكثرَ تَعاطُفًا مع الدِّين، لكنَّهم قالوا إنَّهم يحصُرون مجالَ رؤيتهم بما يمكن ملاحظتُه وإثباتُ حقيقته، ممَّا يعني- بحكم التعريف- استِبعادَ معظم مسائل الإيمان. عندما حان دَوري لأتحدَّث، اعترفْتُ بالأخطاء التي ارتكبَتْها الكنيسةُ وشكرتُهم على أنَّهم لم يُعدِمونا نحن المسيحيِّين حرقًا لمَّا كانَتِ الأحوالُ قد تغيَّرتْ لمصلحتهم. كما شكرتُهم أيضًا على شدَّة نزاهتهم في ما يتعلَّق بوجهة نظرهم التي لا تؤمن بإلهٍ واحد. ثُمَّ قرأتُ مقتطفات ممَّا كتبَه تشيت رايمو (Chet Raymo)، وهو عالِمٌ فلكيٌّ وكاتبٌ علميّ، والذي حَسَبَ الاحتمالات التي تواجِهُ عالَمنا نتيجةَ الصدفة فقط، كما يعتقدُ هو:

إذا كانت نسبةُ كثافة الكَون إلى معدَّل امتداده بعد ثانية واحدة من الانفجار الأعظم قد اختلَفَتْ عن قيمته الافتراضيَّة بجزءٍ واحدٍ فقط من ١٠^١٥ (أيْ ١ يتبعُه ١٥ صفرًا)، فإنَّ الكونَ يكونُ إمَّا قدِ انهارَ بسرعة على نفسه، وإمَّا أنَّه انتفَخَ بسرعةٍ حتَّى إنَّ النجومَ والمجرَّات لا يمكن أن تكونَ قد تكثَّفَتْ من المادَّة الأوَّليَّة... قُذِفَت قطعةٌ نقديَّةٌ في الهواء ١٠^١٥ مرَّة ولم تسقط على حرفِها (حافَتِها) إلَّا مرَّةً واحدة. لو كانت جميعُ حبَّات الرمل على شواطئ الأرض عوالِمَ محتَمَلةً- أيْ عوالِمَ متوافِقةً مع قوانين الفيزياء كما نعرفُها- ولو كانت حبَّةٌ واحدةٌ من حبوب الرمل هذه كونًا يسمَحُ بوجود حياةٍ عاقلة، عندئذٍ تكونُ حبَّة الرمل هذه هي الكون الذي نعيشُ فيه.

بعد انتهاء مجموعة المحاضرين من إلقاء كلماتِهم، انضمَّ إلى المناقشة شخصان يحوزان جائزةَ نوبل، أحَدُهما في الفيزياء والآخر في الكيمياء، بالإضافة إلى بعض المسيحيِّين من ذوي الفكر السَّديد. طلبَ أحَدُ علماء الفيزياء أن يرى الاقتباسَ الذي قرأتُه؛ حيث إنَّه كان صديقًا شخصيًّا لرايمو. فكَّرَ مليًّا للحظة ثُمَّ قال وهو يفكِّر بصوتٍ مسموع: "عشرةٌ إلى القوَّة خمسة عشر، عشرة إلى القوَّة خمسة عشر... ما دام هناك ١٠^٢٢ نجمًا في الكون- إذًا، أستطيع أن أتقبَّل ذلك. سأقبَلُ بهذه الاحتمالات". ثُمَّ انتَقَلْنا إلى انتقاد الدِّين. نعم، لقد ألحقَ الدِّين ضَرَرًا، لكنْ لنأخُذْ في الحسبان الأمورَ الجيِّدة التي أنجزَها أيضًا. إنَّ النَّهجَ العلميَّ ذاتَه انبثقَ من اليهوديَّة والمسيحيَّة، وهو ما قدَّم العالَمَ على أنَّه نتاجُ خالقٍ عاقل، لذا فهو قابلٌ لأنْ ندركَه وخاضعٌ للتحقُّق من صحَّته. وهكذا فعلَ الطبُّ والتربيةُ والديمقراطيَّة والأعمال الخيريَّة وقضايا العدالة (مثل إلغاء العبوديَّة). إنَّ علماءَ الفيزياء الملحِدين قد أقرُّوا صراحةً وبِحُرِّيَّةٍ أنَّه ليس لديهم أساسٌ حقيقيٌّ لأخلاقيَّاتِهم، وأنَّ كثيرًا من زملائهم قد خَدَموا في الأنظمة النازيَّة والشيوعيَّة دون أدنى تأنيبِ ضمير. تبادَلْنا الآراءَ على نحوٍ رائع، وقد كانت

تلك خبرةً فريدةً للحوار الحقيقيِّ الناتج عن وجهاتِ نظرٍ مختلفةٍ حول الكون.

نهَضْنا أنا وزوجتي باكرًا في اليوم التالي، وقُدْنا السيَّارة مئات الأميال إلى اللقاء الثالث عشر لصفِّ اللَّاهوت في كلِّيَّتنا. وهناك استَمعْنا إلى زملاء الصفِّ وهم يَصِفون العقودَ الثلاثةَ الأخيرة من حياتهم. ذكرَتْ إحداهنَّ أنَّها شُفيَتْ من مرض التهاب المفاصل بعدَ سنواتٍ عندما عالجَتْ موضوعَ خطيَّةٍ غير مُعتَرَفٍ بها في حياتها. وأثْنى آخرُ على ميِّزات النَّوم على المغناطيس الكهربائيّ. كان العديدُ منهم يعانون "مُتَلازمة الإنهاك المزمن"، وآخرون الاكتئابَ الشديد. وكان زوجان قد وَضَعا ابنتَهما المراهِقة في مؤسَّسةٍ للاضطرابات العقليَّة. لا يبدو أنَّ هؤلاء أشخاصٌ أصحَّاء، وشعرتُ بالحزن والتعاطُف عندما سمعتُ قِصَصَهم.

من المفارقات أنَّه عندما كان زملاءُ صفِّي يَرْوون قِصَصَ حياتِهم، ظلُّوا يستَعيدون عباراتٍ كنَّا قد تعلَّمْناها في كلِّيَّة اللَّاهوت: "اللهُ يُعطيني الغَلَبة... أستطيعُ كلَّ شيءٍ في المسيح... كلُّ الأشياء تعملُ معًا للخير... أنا أَسيرُ منتَصِرًا". غادرْتُ ذلك اللقاءَ وأنا أشعرُ بِدوارٍ في رأسي. كنتُ أتساءَلُ باستمرارٍ كيف سيكون ردُّ فِعْل العلماء المتَشكِّكين لو أنَّهم حَضَروا لَمَّ شمل طلَّاب صفِّي. أتصوَّرُ أنَّ العُلَماءَ كانوا سيُشيرون إلى انفصالٍ ما بين حياةِ زملائي المرئيَّة، والغطاءِ الروحيِّ الموضوع على حياتِهم.

في صبيحة اليوم التالي، وكان يومَ أحَد، نهضْنا باكرًا مرَّةً أخرى وقُدْنا السيَّارة مسافةَ مئتي ميل (نحو ٣٢٠كم) إلى أتلانتا لحضور "دَفْنٍ" الكنيسة الأصوليَّة التي نشأتُ فيها، كنيسة النجم متعدِّد الزوايا. بعد أن انتقلَتِ الكنيسةُ هَرَبًا من حيٍّ متغيِّر، وجدَتْ نفسَها مرَّةً أخرى محاطةً بأميركيِّين من أصلٍ أفريقيّ، وتَضاءَلَ كثيرًا عددُ الحضور. في مُفارَقةٍ حُلْوة، كانَتِ الكنيسةُ الآن تَبيعُ مَبْناها لرعيَّةٍ من الأميركيِّين من أصلٍ أفريقيّ. تسلَّلْتُ إلى الداخل لحضور خدمة الصلاة الأخيرة لتلك الكنيسة، التي كان قد أُعلِن عنها كلقاءٍ مفتوحٍ لجميع الذين كانوا يواظبون على حضورها.

عرَفْتُ بعضَ الأفراد من ماضيَّ الذين تغيَّروا بمرور الوقت ممَّا جعَلَني أشعرُ بعدم

الراحة. وجَدْتُ أصدقاء المراهقة الآن ببطونٍ ضخمة ورؤوسٍ صلعاء وقد صاروا في منتصف العمر. شدَّد القسُّ الذي خدمَ الرعيَّةَ ذاتَها مدَّةَ أربعين سنة على شعار الكنيسة: "الكفاحُ لأجل الإيمان". قال القسّ: "جاهَدْتُ الجهادَ الحسن، أكملْتُ السَّعي". بدا لي أقصرَ ممَّا أتذكَّر، وجسدُه أقلُّ انتصابًا، وشعرُه الأحمر قد صارَ باللَّون الأبيض. شكرَ الرَّعيَّة عدَّة مرَّات على سيَّارة "الأولدزموبيل" التي قدَّموها إليه بوصفها عطيَّة محبَّة، واستَمرَّ في القول: "ليسَتْ عطيَّةً سيِّئةً لقسٍّ صغيرٍ فقير". في أثناء الخدمة المطوَّلة، وقفَ موكبٌ من الأشخاص وشهدوا كيف تعرَّفوا إلى الله من خلال هذه الكنيسة. عندما كنتُ أستَمعُ إليهم، تخيَّلتُ موكبَ الأشخاص غير الموجودين– أشخاصٍ مثل أخي الذي كان ابتعاده عن الله، في جزءٍ كبيرٍ منه، بسبب هذه الكنيسة. نظرتُ الآن بشَفَقةٍ إلى روحها المثيرة للجدل، في حين أنَّها عصرَتِ الحيويَّة والإيمان واستخرجتهما من حياتي. ما عادَ للكنيسةِ الآن أيَّة سُلطةٍ عليَّ، ولم تَعُدْ لدغَتُها تحملُ السُّمّ. غير أنِّي كنتُ أُذكِّر نفسي باستمرار أنِّي تخلَّيتُ عنِ الإيمان المسيحيِّ تقريبًا كردِّ فعلٍ على هذه الكنيسة، وشعرْتُ بشَفَقةٍ على الذين تخلَّوا عن إيمانهم وتعاطَفتُ معهم.

إنَّ نهايةَ الأسبوع تلك، قدَّمت لقطةً متكرِّرةً لحياتي. تساءلت قائلًا: "إلى أين أنتمي الآن؟" رفضْتُ منذ مدَّة طويلةٍ الروحَ الطائفيَّة للكنيسة التي قد ساعدْتُ لتوِّي على دَفنِها. لكنِّي لم أستطع أيضًا أن أتوافَقَ مع الشكوكيَّة المادِّيَّة للعلماء الذي كانوا ضمنَ مجموعة المحاضِرين. ومع أنَّهم قد يراهنون على حبَّةِ رملٍ رائعة في مواجَهة قوى العشوائيَّة، فإنِّي لا أستَطيعُ أنا أن أفعَلَ هذا. من الناحية اللَّاهوتيَّة، ربَّما أشعرُ بقَدْرٍ أكبرَ من الراحة في الانتماء إلى كلِّيَّة اللاهوت الإنجيليَّة، حيث إنَّ لدينا عاملًا مشتَركًا هو التعطُّش إلى الله، وتبجيل الكتاب المقدَّس، ومحبَّة يسوع. ومع ذلك، لم أجِدْ هناك توازُنًا كبيرًا أو وضعًا صحِّيًّا. في بعض الأحيان، أشعرُ كأنِّي الشخصُ الأكثرُ تحرُّرًا بين المحافظين، وفي أحيانٍ أخرى كأنِّي الشخصُ الأكثرُ محافَظةً بين المتحرِّرين. كيف يمكنُ لي أن أطابِقَ ما بين ماضيَّ الدينيِّ وحاضِري الروحيّ؟

قابَلتُ أشخاصًا عديدين، وسمعتُ من كثيرين آخرين كانوا قد مرُّوا بعمليَّةٍ مُشابِهة لاستخراج الحقيقة من ماضيهم الدينيّ: الروم الكاثوليك الذين يجفلون عندما يَرَونَ كاهنًا أو راهبة، وأتباع الطائفة السبتيَّة الذين لا يستطيعون شُرْبَ فنجانِ قهوة دون إحساسٍ بالذَّنب، وأتباع طائفة المينونايت (Mennonites) الذين يُقلقِهم ما إذا كانت خواتمُ الزواج تدلُّ على الاهتمام بالأمور الدنيويَّة أم لا. يرفضُ بعضُهم الآن الكنيسةَ كلِّيًّا ويحسبون المسيحيِّين مصدرَ تهديدٍ وربَّما أشخاصًا مثيرين للاشمئزاز.

تُجسِّدُ إحدى شخصيَّات ووكر بيرسي (Walker Percy) في كتابه "**المجيء الثاني**" *(The Second Coming)* هذا الموقِفَ بشكلٍ جيِّد:

> أنا محاطٌ بالمسيحيِّين. إنَّهم بصورةٍ عامَّة جماعةٌ مَرِحةٌ ومُرضِية، ومن الملاحظ أنَّهم لا يختَلفون عنِ الأشخاص الآخرين. مع أنَّهم- مسيحيُّو الجنوب والولايات المتَّحدة الأميركيَّة والعالَم الغربيّ- قتلوا من الناس عددًا يفوقُ ما قتَلَه بقيَّةُ البشر مجتَمعين. لكنِّي لا يمكنُ أن أتأكَّدَ من أنَّهم لا يملكون الحقيقة. لكنْ إذا كانوا يملكون الحقيقة، فلماذا يوصَفون بأنَّهم بغيضون، تحديدًا لأنَّهم يتَبنَّون الحقيقةَ ويُعلنونها؟ يمكنُ للمرء حتَّى أن يصيرَ مسيحيًّا إذا وُجِدت قلَّةٌ من المسيحيِّين، أو حتَّى إنْ كان للمسيحيِّين وجودٌ أصلًا. هل عِشْتَ مرَّة وسط خمسةَ عشر مليون شخصٍ من الطائفة المعمدانيَّة؟ إنَّه لأمرٌ غامض: إنْ كانَتِ الأخبارُ السارَّةُ حقيقيَّةً، فَلِمَ لا يُسرُّ أحدٌ بسماعها؟

سؤالُه الأخيرُ يدوِّي عاليًا. إذا كان الإنجيلُ قد جاءَ بوصفه "**نهايةً سعيدة**"، وهي الكلمة التي استخدمها جاي. آر. آر. تولكين (J. R. R. Tolkien) لوَصْفِ أمرٍ جيِّدٍ ومُذهِل يحدُثُ لأشخاصٍ سيِّئين بصورةٍ مُذهلة، لماذا يحسبُه عددٌ قليلٌ من الناس أخبارًا سارَّة؟

لقد صرتُ الآن كاتبًا، كما أعتقد، لأفرزَ الكلماتِ التي تستخدمُها كنيسةُ صِباي وتُسيء استخدامها. ومع أنّي سمعْتُ أنَّ ''الله محبّة''، فإنَّ صورةَ الله التي وصلَتْني من العِظات كانت تُشبِهُ كثيرًا طاغيةً غاضبًا ومُنتقِمًا. كنَّا نرنِّم ''حُمرٌ، صُفرٌ، سودٌ، بيضٌ- كلُّهم يحبُّهم...''، لكنِ انظُرْ إلى ما سيَحدُثُ إذا سمحْتَ لأحَدِ هؤلاء الحُمر أوِ الصُّفر أوِ السُّود بدخول كنيستنا؛ كان أساتذةُ الجامعات يصرُّون على القول: ''نحن لا نعيشُ تحت الناموس بل تحت النعمة''، لكنّي لم أستَطع أن أميِّزَ تمامًا الفرقَ ما بين هاتَين الحالتَين. ومنذ ذلك الوقت إلى الآن، لا أزالُ مستمرًّا في عمليَّة بحثٍ لاكتِشاف حقيقةِ الأخبار السارَّة، وبحثٍ عن كلمات الإنجيل الأصليَّة واكتشاف ما يَعنيه الكتابُ المقدَّس باستخدامه كلماتٍ مثل ''**محبَّة ونعمة ورأفة**'' للتَّعبيرِ عن صفات الله. أحسَسْتُ بأنَّ هناك حقًّا في هذه الكلمات- الحقَّ الذي ينبغي البحث عنه بمثابرةٍ ومهارة، مثل تلك الروائع الجصِّيَّة الموضوعة تحت طبقاتٍ من الجصِّ والطلاء في المعابدِ العتيقة.

شعرتُ بأنَّ الكتابةَ تجتذبُني لأنَّها فتحَتْ أمامي شقوقًا من النور صارَتْ نافذةً تطلُّ على عالَمٍ آخر. أتذكَّرُ تأثيرَ كتابٍ معتَدلٍ مثل كتاب ''**قَتْلُ الطائر المحاكي**'' *(To Kill a Mockingbird)*، الذي ألقى الشكوكَ حول افتراضات الفصل العنصريِّ الخاصَّة بمَن هم حولي من أصدقاء وجيران. وعندما أخذْتُ أقرأُ كتابَ ''**أسودُ مِثلي**'' *(Black Like Me)*، و''**السيرةُ الذاتيَّةُ لمالكوم أكس**'' *(The Autobiography of Malcolm X)*، ووثيقة ''**رسالةٌ من سجن مدينة برمنغهام**'' *(Letter from Birmingham City Jail)* التي كتَبَها مارتن لوثر كِنغ (Martyn Luther King)- حينما قرأتُها كلَّها تحطَّمَ عالَمي. شعرتُ بالقوَّة التي تسمَحُ لعَقلِ إنسانٍ واحدٍ أن ينفَذَ إلى عَقلِ إنسانٍ آخرَ دون وسيط، باستثناء هذه الورقة. وجدْتُ أنَّ الكتابةَ يمكنُ أن تتسرَّبَ إلى الشقوق وتجلبَ الأوكسجين إلى أشخاصٍ محاصَرين في صناديقَ مُحكمَةِ الإغلاق.

صرتُ أقدِّرُ بشكلٍ خاصٍّ قيمةَ نَوعيَّةِ الكلمة المكتوبة التي تعزِّز الحرِّيَّة. كان باستِطاعةِ المتكلِّمين في الكنائس التي كنتُ أرتادُها رَفْعَ أصواتِهم واللعب على أوتار

العواطف كأوتار آلاتٍ موسيقيَّة. لكنِّي بينما كنتُ وحيدًا في غرفتي أقلِّبُ الصفحات كما أريدُ، قابَلْتُ ممثِّلين آخرين للإيمان: سي. أس. لِويس (C. S. Lewis) وجي. كاي. تشيسترتون (G. K. Chesterton) وجون دون (John Donne)– هؤلاء الذين كانت أصواتُهم الأكثرَ هدوءًا تجتازُ الوقتَ لتُقنِعَني بأنَّه في مكانٍ ما، كان هناك مسيحيُّون يعرفونَ النعمة كما يعرفون الشريعة، والمحبَّة كما الدَّينونة، والمنطقَ كما العاطفة. صرتُ كاتبًا بسبب لقائي قُوَّةَ الكلمات، وكسبْتُ الرجاءَ بإمكانيَّة إصلاح الكلمات المشوَّهة التي انتُزِعَ منها معناها الأصليّ.

منذ ذلك الحين وحتَّى الآن، تمسَّكتُ بتَصميم قَويٍّ بموقف الرحَّالة؛ لأنَّ هذا هو كلُّ كِياني. ليسَتْ لديَّ صفةٌ دينيَّةٌ رسميَّة. أنا لستُ قسًّا أو معلِّمًا، لكنِّي رحَّالةٌ عاديّ، شخصٌ واحدٌ من بين كثيرين يقومون بعمليَّة بَحْثٍ روحيَّة. أنا أناقشُ إيماني وأُعيدُ تقييمَه في كلِّ مرَّةٍ بصورةٍ غريزيَّة لا يمكن تجنُّبُها. عندما عُدتُ من عطلة نهاية الأسبوع، التي أصابت رأسي بالدُّوار، بين علماء الفيزياء وزملاء كلِّيَّة اللَّاهوت والأصوليِّين الجنوبيِّين، سألْتُ نفسي ثانية: "لماذا أنا مسيحيّ؟" ما الذي يدفعُني للسَّعي وراء إنجيلٍ وصَلَني وسطَ الكثير من التَّشويه والتَّشويش والجمود، والذي يبدو في كثيرٍ من الأحيان مثل أخبارٍ سيِّئة وليست سارَّة.

لكلِّ كاتبٍ موضوعٌ رئيسيٌّ واحد، أثَرٌ يتحقَّقُ منه ويقتَفيه ويتتبَّعُ مصدرَه. إذا أردْتُ أن أعرِّفَ موضوعي، فسيكون عن شخصٍ تشرَّبَ بعض أسوأ ما يمكن للكنيسة أن تقدِّمَه، ومع ذلك هبطَ في أحضان الله المُحِبَّة. أجل، واجَهْتُ فترةَ رَفْضٍ للكنيسة ولله، واختبارَ تحوُّلٍ عكسيٍّ شعرتُ فيه بالتَّحرُّر بعضَ الوقت. لكنِ انتَهى بي المطاف، لا ملحدًا أو لاجئًا خارج الكنيسة، بل أحَد المدافعين عنها. ما الذي سمحَ لي بأنْ أحرِّرَ إيماني الشخصيَّ من الآثار المدمِّرة للدِّين؟

إنَّ الأشخاصَ الذين يرسُمُ هذا الكتاب شخصيَّتَهم، يبذلون جهودًا قلبيَّةً صادقةً للإجابة عن ذلك السؤال. في أثناء عملي صحفيًّا مدَّة ثلاثين عامًا، أُتيحَتْ لي حرِّيَّةُ

التحقُّق من جميع الأشخاص على مختلف أنواعهم. قابلْتُ شخصيَّاتٍ تَتَناسَبُ مع شخصيَّاتِ إحدى قِصَص فلانري أوكونور (Flannery O'Connor). وأجرَيتُ مقابلةً مع الكارز التلفزيونيِّ جيم باكر (Jim Bakker) وهو في أوج سيطرته الغريبة على الشقق باهظة الثمن، والأكواخ المكيَّفة، وذلك في الاستوديو المترف والمتنزَّه المسيحيّ، ثُمَّ شاهَدْته وهو ينكرُ علنًا عباراتٍ كان قد قالَها لي ضمنَ شريطٍ مسجَّل. واستمعْتُ إلى فتاةٍ من لاس ڤيغاس تذكُرُ كيف تعرَّفت إلى الله بينما كانت مستَلقِيةً على طاولة العمليَّات لتَكبير صدرها، وبينما هي تحت تأثير المخدِّر، شاهدَتْ حُلُمًا يدورُ حول قاطراتٍ تشبه الشاحنات مصنوعة من اللحم البشريّ، وقالتْ: "كان كلُّ شيءٍ مصنوعًا من اللحم حتَّى شرائح الطين"- وكانت القاطراتُ تُفرِغ شحنةً من مراهِقاتٍ أميركيَّاتٍ في بحيرةٍ من نار.

غير أنّي كنتُ أحاولُ في معظم الأوقات أن أتجنَّبَ مثل هؤلاء الأشخاص، على الرُّغم من أنَّ رفقتهم ربَّما تكونُ مُسلِّية. لقد ذكَّروني كثيرًا بماضيَّ الذي كنتُ لا أزالُ أحاولُ الهربَ منه. بدلًا من ذلك، قرَّرتُ في مرحلةٍ مبكِّرةٍ من مهنتي الصحفيَّة أن أتعرَّف إلى أشخاصٍ وأستَكشفَ أشخاصًا يكون بإمكاني التعلُّم منهم. ووددتُ لقاء أشخاصٍ قد أرغب في محاكاتهم. وحيثُ إنّي نشأتُ مع نماذج هي في غالبيَّتها سلبيَّة، فقد كنتُ أتوقُ لأنْ أوجَدَ مع نماذجَ إيجابيَّة. وقد وجدْتُ بعضًا منها.

اشتدَّتْ خَيبةُ أمل المليونير والرياديِّ ميلارد فولر (Millard Fuller) من التَّنافُس الشديد ما بين الشركات، وبعد أن تحدَّاه القسُّ المتطرِّفُ كلارنس جوردان (Clarence Jordan)، هَجَرَ حياةَ التَّرَف والرَّفاهِيَة وأسَّس منظَّمةً لبناء البيوت للذين لا يستطيعون تأمين ثمنها. احتفَلَتْ مؤسَّسة "هابيتات فور هيومانيتي" (Habitat for Humanity) مؤخَّرًا بالانتهاء من بناء البيت رقم مئة ألف. واخترَعَ شخصٌ إنجيليٌّ مشيَخيٌّ متديِّنٌ يُدعى جاك ماك كونيل (Jack McConnell) اختبارَ الناتىء أو السُّلّين (Tine Test) لمرضى التدرُّن الرئويّ (السُّلّ)، كما ساعَدَ على تطوير مسكِّن التايلنول والتصوير بالرَّنين المغناطيسيّ، ثُمَّ قرَّر أن يعملَ ثانيةً بعد تقاعُده لكي يستَقطبَ أطبَّاءَ متَقاعدين

للعمل في مستَوصَفاتٍ طبِّيَّة مجَّانيَّة للفقراء. والتحقَتْ ديم سيسيلي سوندرز (Dame Cicely Saunders) بكلِّيَّة الطبِّ وهي في منتصف العمر؛ لأنَّ السلطات قالت لها: "في هذه المهنة، لا يستمعُ الناس إلَّا إلى الأطبَّاء"؛ لم تمارِس الطبَّ قطّ، لكنَّها بدلًا من ذلك، أشعلَتْ شرارةَ حركة المشافي الحديثة وأطلقَتْ أسلوبَ رعايةٍ جديدًا للأشخاص المشرفين على الموت. وأسَّس السير غيليان پرانس (Ghillean Prance)، عندما كان مديرَ الحدائق النباتيَّة في نيويورك، والحدائق النباتيَّة الملكيَّة في كيو بإنكلترا- مَعهَدًا يتألَّفُ اسمُه من كلمتَين متناقِضتَين، علم النبات الاقتصاديّ، يوضِحُ لمالكي الغابات المطيرة في العالم كيف يكونُ بإمكانهم جنيُ المزيد من المال بإعادة الغَرس وحَصاد المنتجات انتقائيًّا، بدلًا من قَطْع الأشجار كلِّيًّا. بعدما أجرَيتُ مُقابَلاتٍ مُطوَّلةً مع كلِّ واحدٍ من هؤلاء الأشخاص، عدْتُ وأنا متأثِّرٌ ومعجبٌ كثيرًا بالدَّور الذي يستطيعُ أن يقوم به مواطِنون عاديُّون يغذِّيهم الإيمانُ في تعزيز قضايا العدالة والرحمة وتقدُّمها.

قال اللَّاهوتيُّ إيريناوس (Irenaeus) الذي عاش في القرن الثاني: "إنَّ مجدَ الله هو شخصٌ حيٌّ تمامًا". ممَّا يدعو للحزن أنَّ هذا الوصف لا يعكسُ الصورةَ المنطَبعةَ في ذِهْن العديد من الناس عنِ المسيحيِّين العصريِّين. سواءٌ كان ذلك صوابًا أم خطأً، فهم يرَون المسيحيِّين أشخاصًا متعصِّبين ومتَوتِّرين ومَكبوتين، يهزُّون أصابعَهم استنكارًا أكثر من احتفائهم بالحياة. لكنْ لكَوني صحفيًّا، فقد قابلتُ أشخاصًا تعزَّزتْ حياتُهم فعلًا في كلِّ شيءٍ بواسطة إيمانهم. لديهم حياةٌ فُضلى وافرة، ولأنِّي أمضَيتُ وقتًا مع أشخاصٍ كهؤلاء، أردْتُ الاستفادة من ذلك المصدر للحياة لنَفسي، ومن ثَمَّ أنقلُه إلى بقيَّة العالَم.

شخصيَّاتُ هذا الكتاب هم ممثِّلون مختارون لأولئك الذين تعلَّمتُ منهم والذين يتَحدَّونني. يتَقاطَرون من اليابان وهولندا وروسيا والهند وإنكلترا، بالإضافة إلى أميركا الشماليَّة. ليسوا جميعًا مسيحيِّين متمسِّكين بعقائدهم، وأحدهم- وهو المهاتما غاندي- اتَّخذ موقفًا ضدَّ الدِّين المسيحيّ. غير أنَّهم جميعًا تغيَّروا بصورةٍ دائمة نتيجة اتِّصالهم بيسوع. قابلْتُ نصفَهم شخصيًّا وأجرَيتُ مُقابَلاتٍ معهم، وفي بعض الحالات، تكوَّنَتْ

صداقةٌ دامَتْ مدى الحياة. والنصف الآخر أعرفُه فقط بطريقةٍ غير مباشرة من خلال الكتابات التي تركوها وراءهم. ومن الغريب أنَّ الأكثرَ بُعدًا بينهم من المسيحيَّة القويمة- غاندي، وتولستوي، ودوستويڤسكي، وإندو- هم أفضلُ مَن ساعَدَني على فَهم إيماني بتَسليطِ الضَّوء عليه من زاوية لم أكُنْ قد فكَّرت فيها من قبل.

الكُتَّابُ كائناتٌ طُفَيليَّة يمتصُّون الحياةَ من أُناسٍ آخرين، وأنا شاكرٌ بأن أكون مشاركًا بعضَ الشيء في حياة أولئك الأشخاص الاستثنائيِّين. قليلون منهم ساعَدوا على تغيير التاريخ وكوكب الأرض. لبَّى آخرون دعوةً داخليَّة للعمل في الحياة العامَّة. وبعضُهم جَلَسوا فقط في بيوتهم مع مجموعة أوراقٍ يتأمَّلون حياتَهم وأفكارَهم ويصنِّفونها ويسجِّلونها لأجيال المستقبل. وها أنا أفعَلُ الأمرَ ذاتَه الآن، أقدِّم مُرشِديَّ هؤلاء كما لو أنَّهم في معرضِ صُوَر، على أمل أن أنقلَ ميراثَهم إلى الآخرين.

لدى الأشخاص الثلاثةَ عشر الذين ستُقابلُهم هنا عاملٌ واحدٌ مشترك: تأثيرهم فيَّ. لهذا السبب كنتُ أسألُ نفسي في كلِّ فصلٍ من فصول هذا الكتاب عنِ التأثير الذي أحدَثوه في حياتي. كيف تغيَّرتُ بسبب اتِّصالي المباشر أو غير المباشر بهؤلاء الثلاثة عشر؟ بمرور الوقت، صار الأشخاصُ الذين وصفتُهم هم الذين شكَّلوا إيماني، أيْ أنَّهم صاروا "سحابةَ شهودي". لو دُعيت إلى مؤتمر ملآنٍ بالمشكِّكين أو بممثِّلين عن دينٍ آخر، وطُلِب منِّي أن أشرحَ عقيدتي، فهؤلاء هم رفقائي الذين أودُّ اصطحابهم معي. أستَطيعُ أن أدلَّ عليهم فقط وأقول: "المسيحيُّون ليسوا كاملين بأيَّة صورةٍ كانت، لكنَّ بإمكانهم أن يكونوا أشخاصًا جرى إحياؤهم بالكامل. هكذا يبدون". كلُّ واحدٍ منهم هو في قمَّة مجاله ويُرجع الفضل للإيمان الشخصيِّ بوصفه أحد أسباب وجوده في تلك القمَّة.

لا بدَّ لي من القول إنَّ كتابةَ هذه الإشادات بهؤلاء الأشخاص كانت أشبَهَ بتمرينٍ صحِّيٍّ، أو بالأحرى هي فرحٌ بالنِّسبة إليَّ. لم أبدأ الكتابة وفْقًا لبرنامَجٍ محدَّدٍ بهدفِ تحويلِ أيِّ شخصٍ عن معتقداته للدِّفاع عن الكنيسة أو حتَّى لانتقادها. أريدُ فقط أن أجعلَ

الآخرين يعرفون غرفةً زاخرةً بأشخاصٍ مميَّزين لا أستطيعُ نسيانَهم ولا أرغبُ في ذلك.

يستخدمُ فريد روجرز (Fred Rogers)، وهو مُضيفُ برنامَج تلفزيونيٍّ للأطفال اسمه "حيُّ السيِّد روجرز" (Mister Rogers' Neighorhood)، تقليدًا في كلِّ مرَّةٍ يتحدَّث فيها. فهو يطلبُ من جمهور المشاهدين أن يتوقَّفوا دقيقةَ صمتٍ ويفكِّروا في جميع الذين ساعَدوهم على أن يصيروا ما هُم عليه. في تجمُّعٍ مَهيب جرى ذاتَ مرَّةٍ في البيت الأبيض، مُنحَ روجرز ثمانيَ دقائق فقط ليتطرَّق إلى قضايا الأطفال، ولكنَّه مع ذلك كرَّس إحدى هذه الدقائق لتكونَ دقيقةَ صمت. قال: "هذا ما سيَتذكَّرُه الناس على الدوام، ذلك الصمت". عادةً ما يخطرُ في بالي شخصٌ من الماضي– جدٌّ، أو معلِّمٌ من المدرسة الابتدائيَّة، أو عمٌّ غريبُ الأطوار. لقد أمضَيتُ عدَّة دقائقَ وأنا أتأمَّل بِصَمتٍ في سؤال السيِّد روجرز. هذا الكتابُ يمثِّلُ جوابي. هؤلاء هم الأشخاصُ الذين ساعَدوا على استِعادَتي كنوزَ الله الموضوعةَ في غير مكانِها.